الأدب الإسلامي ، ومعادلة الهدف والفن

حين ننظر إلى التفسيرات المختلفة لطبيعة العمل الأدبي على مر التاريخ ، نجد أنها لم تخرج عن النظريات الأربع (المحاكاة ، التعبير ، الخلق ، الإنعكاس) ، وهذه التفسيرات ، وإن ارتبطت بمصطلحات أوربية رصدت تطور الأدب الأوربي من العصر اليوناني حتى اليوم ، ولكنها تلتقي مع بعض التفسيرات للظاهرة الأدبية في أماكن أخرى من العالم ، وإن اختلفت في التعبير عن هذه الظاهرة أو صياغة المصطلح . على أنه ليس من الحتمي أن يتزامن الفهم الخاص لهذه النظريات مع الفترة التي ظهرت فيها بأوربا ، فقد تكون سابقة لها وقد تكون لاحقة .

وتتفاوت هذه النظريات من حيث المنطلق والإهتمام ، فبينما تُعنى نظرية المحاكاة بالواقع أو الموضوع ، نجد نظرية التعبير تُبرز الاهتمام بالأديب ونفسيته . أما نظرية الخلق فتلك غايتها صنعة الأدب ذاته ، على أن نظرية الإنعكاس قد ركزت عنايتها على الظروف الإقتصادية للمجتمع ، فتكون قد عُنيت بالأديب والجمهور معاً.

ولسنا هنا في موضع التفسير المعمق لهذه النظريات ، ولكننا نقول أنها ليست متدابرة تماماً ، فقد تلتقي اثنتان من النظريات أو أكثر عند فهم واحد لبعض القضايا ، ولكن التمذهب يجعل الطابع العام للنظرية يختلف عن النظرية الأخرى . فمهما قيل عن نظرية المحاكاة بأنهاتعنى بـ(المثال) الأفلاطوني أو أنها تهتم بالحقيقة الخارجية ، فإنها لاتعني الإنفصام التام عن شخصية الأديب وذاتيته . فلقد انتهى الفلاسفة والأدباء الذين يسيرون في فلكهم (إلى أنّ المحاكاة بسبب طبيعتها التخييلية ، لاتنقل العالم نقلاً حرفياً . . إنها إنتاج ذاتي ، تنتخب فيه المخيلة من المدركات مايتناسب مع الإدراك الذاتي للمبدع)(١) كما أن نظرية الإنعكاس لاتنفي عنصر الصياغة الفنية أوتلغي شخصية الأديب ، وإن أخضعت هذا كله لقاعدتها الإقتصادية المعروفة .

بعد هذا نقول : إن نظرية الأدب الإسلامي ليست مذهباً فنياً محضاً لايلتقي البتة مع الذاهب الأخرى من حيث إطارها الفني العام . ولو أردنا ذلك ، فإنه أمر غير